الحياة الطيّبة
السنة 26
العدد 50-51
صيف - خريف 2022م
ملف العدد

إصلاح التعليم الحوزويّ: الشيخ محمّد رضا المظفّر أنموذجًا

الشيخ الأسعد بن علي قيدارة[1]

مُستَخلَص:

عبر تاريخ حوزة النجف الأشرف، هيمنت عادات وأعراف على نُظُم التعليم، وسادت أساليبُ مخصوصة في التدريس، وشاعت تقاليد في اعتماد المتون.

ولكن كلّ ذلك لم يمنع هذا الفضاء الحضاريّ، من أن يكون مسرحًا نشِطًا لدعوات إصلاحيّة، ومشاريعَ تجديدٍ للتعليم الحوزويّ وأساليبه. ومن أهمّ هذه المشاريع الإصلاحيّة التي تجاوزت ما قبلها وشكّلت تحدّيًا لما بعدها، تجربة الشيخ محمّد رضا المظفّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

والدراسة بين أيدينا محاولة لإثبات هذه الفرضيّة، وهي مراجعة مسلّحة بمنهجية تحليليّة نقديّة استقصائيّة، قوامها خطوات ثلاث:

أولًا: قراءة موضوعية للحوزة: هوية، ومقوّمات وتشخيص روح التعليم الحوزويّ وجوهره.

ثانيًا: التعرّف على الشيخ المظفّر من جهة كونه شخصيّة مجبولة على الإصلاح، ولصيقة به، حتى غدا قرينًا للإصلاح والأخير قرينًا له.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ وأستاذ في جامعة المصطفى ﷺ العالمية، من تونس.

ثالثًا: شموليّة المشروع الإصلاحيّ للشيخ المظفّر وأبعاد هذا المشروع، وتجلّيات نجاحاته.

وفي الاستخلاصات تقودنا المعالجة إلى حقيقة مفادها أنّ هذه المسيرة الإصلاحيّة للشيخ لا تزال منارة إلهام للعديد من التجارب المعاصرة، سواء سواء أكانت شخصيّة أم مؤسّساتية، في تجديد التعليم الحوزويّ.

كلمات مفتاحيّة:

الحوزة، حوزة النجف، الشيخ محمّد رضا المظفر، منتدى النشر، كلّيّة الفقه، نظام التعليم الحوزويّ، المتون الدراسية، النظام الأكاديميّ.

تمهيد:

لا ينقضي الحديث عن التجديد الحوزويّ، ولا تتناهى فصوله، فإرهاصات التغيير والنهوض تتصاعد داخل هذه المؤسّسة، بل غدا هذا الهاجس اليوم أكثر حيوية من أيّ وقت آخر لعوامل عدة:

- **أولًا:** التحوّلات الاستراتيجيّة التي حصلت في العالم الإسلاميّ في الخمسين سنة الماضية، نتيجة تصاعد موجة الإحياء الإسلاميّ، وبالخصوص بعد قيام الثورة الإسلاميّة في إيران، التي لاتزال تجربتها في الحكم (نظام الجمهوريّة الإسلاميّة) مستمرّة ومتصاعدة. وهذا الإحياء الإسلاميّ، أثمر التفاف الشباب من جديد حول العلماء، وتوجّههم نحو مؤسّسات التعليم الدينيّ.

- **ثانيًا:** تنامي الجدل حول البرامج التعليميّة الدينية، واشتداد وطيس الحروب الإعلاميّة التي تشنّها الدوائر الاستخباراتيّة العالميّة، وأبواقها الإعلامية المحلّية، ترفدها النخب المتغرِّبة داخل العالم الإسلاميّ التي انسلخت عن دينها وتراثها، وهي تسبّح صباح مساء بمجد الغرب وحضارته وعلمانيّته، و تنتقد بقسوة برامج التعليم الديني، وتحطّ من أهمية التراث الديني، وتحقّر من موقع المؤسّسات العلمية الدينيّة (تصاعدت الموجة في العقدين الأخيرين)

- **ثالثًا:** التحدّيات العالميّة التي يواجهها التشيّع بالذات اليوم، والحروب التي تشنّها بعض الأطراف ضد كيانات المذهب ومجتمعاته ومؤسّساته، وعلى رأس هذه المؤسّسات المستهدفة: المرجعيّة الدينية والحوزة العلميّة.

- **رابعًا:** الطفرة العلميّة التي حصلت في مجال مناهج التدريس وأساليبه، والتحوّلات التي عرفتها أنظمة التعليم والتدريس في العالم، عمّقت الهوة أكثر فأكثر بين نمط الحياة المعاصرة في مجال التعليم والتدريس

وبين الأساليب التقليدية التي لا تزال تحافظ عليها الحوزة العلميّة.

ولهذا الاصلاح والتجديد الذي تشرئبّ له الأعناق تاريخ عريق يضرب بجذوره في مطلع القرن الماضي بالخصوص. ومنطق التكامل يقتضي أن تنهل التجارب المعاصرة من هذا الرصيد التاريخي الثمين، والبناء عليه، "ففي التجربة علم مستأنف".

ومن التجارب التأسيسيّة الرائدة في الحوزة، تجربة الشيخ محمد رضا مظفّر رَحِمَهُ اللَّهُ والتي يجدر الوقوف عندها دراسة، وتحليلًا، وتقويمًا.

فمن هو الشيخ المظفر؟ وما هي معالم تجربته الإصلاحيّة وأهم إنجازاتها؟ وما مآلات هذه التجربة؟ وأين تقف التجارب المعاصرة في الإصلاح من مشروع الشيخ المظفّر رَحِمَهُ اللَّهُ؟

أولًا: الحوزة العلميّة: الهويّة، والنبذة التاريخيّة، والخصائص:

لا نريد في هذه الدراسة أن نستغرق كثيرًا في التعريف بالحوزة: هوية وتاريخًا، ولكن الضرورات المنهجيّة تقتضي الإشارة إلى ذلك، ولو على نحو الإيجاز، والاختصار.

لقد حشدت العديد من المصنّفات تعريفات كثيرة[1]، ويمكن القول على نحو الإجمال والاختصار، ودون الخوض في سردها ومناقشته،: الحوزة هي الفضاء العلميّ المعرفيّ الذي يعدّ الطلاب للاجتهاد في علوم الدين وأداء مسؤوليّات التبليغ الدينيّ، وهذا التعريف الوظيفيّ، يؤشّر إلى مهام الحوزة الأساسيّة، والتي ستكون مناط البحث في أداء الحوزة، وتحليل ضرورات الإصلاح عند تحقّقها، وتقويم مشاريع الإصلاح فيها عند انعقادها.

ولمّا كان تعليم الدين وأحكامه من المهام المحوريّة للحوزة، أرجع بعض

(1) انظر:الدجيلي، جعفر: موسوعة النجف؛ وانظر أيضًا: الفرحان، عدنان: تاريخ الحوزات العلمية؛ وانظر: الحكيم، عبد الهادي: النجف الأشرف وحوزتها، ط1، كربلاء، دار الكفيل، 2018.

الباحثين جذورها التاريخيّة إلى زمن الرسالة في بدايات الدعوة الإسلامية مع النبي محمّد ﷺ حيث كانت حلقات الدرس والتعليم في المسجد، وبيوت المسلمين الأوائل، وعثر آخرون على أصولها في التاريخ، وذلك في حركة الأئمّة الأطهار، خاصّة أولئك الذين ازدهرت أنشطتهم العلمية والتعليمية كالإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام.

ولكن تاريخ التأسيس الرسمي يعود في قراءاته المشهورة إلى هجرة الشيخ الطوسيّ(385-460هـ) من بغداد إلى النجف حيث شيّدت ما يسمى بحوزة النجف الأشرف، والتي ينتمي إليها الشيخ المظفّر محور دراستنا؛ ولذلك ينصبّ البحث أساسًا على تاريخ هذه الحوزة وحركة الإصلاح فيها، وموقع مشروع الشيخ المظفر من كل ذلك.

1-1 عوامل تطوّر الحوزة وازدهارها:

باستقراء تاريخ الحوزات العلمية، نلاحظ أنّه توجد عوامل أساسية تؤثّر في تطوّرها وازدهارها، أو تدهورها، وتراجعها، منها:

1-1-1 - وجود الشخصيّات العلمية المؤثرة: ولذا نلحظ أنّ العديد من الحوزات تنسب إلى علماء كانوا محور حركة هذه المدارس وعمود فِقَرِهَا: فالشيخ الطوسي(385-460هـ) لحوزة النجف، والشيخ عبد الكريم الحائري (1276-1355هـ) لحوزة قم المعاصرة والميرزا محمد حسن الشيرازي(1230- 1312ه) لحوزة سامراء.....

1-1-2 - خصوصية المكان: فالموقع المكاني يؤثّر في تحديد مدى قدرة الحوزة على النمو والاستمرار، وأهمية المكان تنبع من جهتين:

أ- البعد السياسيّ: لأنّ مديات خضوع المكان لقبضة السلطة السياسية، وتعقيدات الأوضاع الاجتماعيّة الذي تفرضه السلطات على تلك الأماكن وسكّانها من الشيعة الذين عاشوا في العموم أوضاعًا صعبة، تتفاوتُ

من موقع لآخر.

ب- البعد الديني المعنوي: فالحوزات تقام بجوار المراقد المقدّسة عادة، وهذا يرتبط بالشحنة المعنوية التي يمنحها هذا الجوار لطلاب العلم، ففلسفة التعليم الديني تقوم أساسًا على التلازم بين التزكية والتعليم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1]، ومن الطبيعيّ أن قداسة تلك المزارات والمراقد تتفاوت بحسب مكانة صاحب المرقد الإيمانيّة والروحيّة.

هذه الظاهرة نجدها عند أهل السنة أيضًا، فالكثير من المدارس شُيّدت عندهم في أروقة المساجد أو بجوار قبور العلماء والصالحين ومقاماتهم، كجامعة الزيتونة في تونس، والقرويّين في فاس بالمغرب، وجامعة الأزهر في القاهرة.....

1-1-3 - العامل الثالث: الذي يؤثّر في حركة الحوزات ومساراتها، ومنحنيات تطوّرها، التحدّيات التي تواجه هذه المؤسسة، خاصة التحديات السياسية (فيما يرتبط بالمضايقات والعلاقة مع السلطة السياسية)، والثقافية (طبيعة الأفكار والثقافة التي يُروّج لها في أوساط المجتمع، وخاصة في فضاء الحوزة، فَبُعْدُ هذا الثقافة وهذا الفكر عن الأصالة يستنفزّ الحوزة ويستنفرها للقيام بواجباتها الدينية، كما أنّ للصراعات الدينية والمذهبية أثرًا على هذا الصعيد.

1-2- خصائص التعليم الحوزويّ:

ومن المهمّ أن نشير في هذا التأطير الموجز للحوزة إلى خصائص التعليم الحوزويّ، فهذا النمط التقليدي من التعليم يستند إلى مقوّمات أساسية

(1) سورة الجمعة: الآية 2.

تدعو للتأمّل، قبل التسرع على الحكم عليها، كما هو ديدن الكثيرين ممّن ينطلقون في مسارات التجديد بعقدة مستحكمة من كل قديم ورفض باتٍّ له!!!

فبعض النظريات التربوية الحديثة غدت تدعو إلى بعض الأساليب والأصول التي كرّستها الحوزة العلمية منذ قرون: كحرّية الطالب، وتفريد التعليم، ومراعاة الفوارق الفرديّة، والتعليم البحثي الحر كما يتجسّد في مرحلة البحث الخارج بالخصوص...

وأهمّ هذه المقومات:

1-2-1 - المراحل الكبرى: تعدّدت الآراء حول مراحل الدراسة في النظام الحوزوي [1]، ولكنّها تتفق في الجوهر على ثلاث مراحل أساسية: المقدّمات، والسطوح، والبحث الخارج، والاختلاف بين هذه الآراء إمّا في تفريع بعض هذه المراحل، كتقسيم السطوح إلى سطوح دنيا وعليا، أو دمج المقدمات والسطوح في مرحلة واحدة وهي السطوح، أو الجمع بين المرحلتين دون دمج....إلى غيرها من الاختلافات الشكليّة.

أ-مرحلة المقدمات: يدرس الطالب في هذه المرحلة الأدبَ، والنحو، والصرف، والعلوم البلاغية، والمنطق، ومبادئ الفقه، وبعض العلوم الأخرى...

ب-مرحلة السطوح: وسمّيت كذلك لأنّ الدرس يبقى في سطح المتن المعتمد، دون الغوص عميقًا للنقد واستقصاء الآراء الأخرى والترجيح وبلورة رأي خاص، كما هو الحال في البحث الخارج (المرحلة الثالثة).... وفي حوزة النجف يركّز على الكتب الفقهيّة والأصوليّة والفلسفيّة في هذه المرحلة.

(1) 2- توجد خمسة أقوال في المسألة. انظر: البهادلي، علي: الحوزة العلمية في النجف معالمها وحركتها الإصلاحية، ط1، بيروت، دار الزهراء، 1993، ص: 271 و 272.

ج-المرحلة الثالثة: مرحلة البحث الخارج، وسمّيت كذلك لأنّ الدراسة تكون من خارج متن محدّد، وفي هذه المرحلة يتدرّب الطالب شيئًا فشيئًا على الاستنباط والاستقلال في الرأي، وذلك بحضور محاضرات أحد الأعلام المجتهدين الذي ينقّح مسائل العلم: علمي الفقه والأصول بالخصوص، مسألة مسألة، باستقصاء المباني والأقول والأدلّة ومناقشة كلّ ذلك، وترجيح قول أو تبنّي رأي آخر في ضوء هذا العرض، ومناقشة الطلاب الحضور الذين بدورهم يعدّون مسبقًا لموضوع النصّ، ويكونون على أهبة النقاش والردود.

2-2-1 -المتون: تبيّن من خلال استعراض المراحل الدراسية أنّ مرحلة المقدّمات والسطوح، تتقوّمان أساسًا بمتون دراسية محدّدة يدرسها الطالب، وأغلب هذه المتون قديمة تعود إلى قرون قد خلت، وسينجلي ذلك بوضوح من خلال هذا الاستعراض لأشهر المتون التي لايزال بعضها يدرس إلى يومنا هذا، وهي:

1- في مجال اللغة والأدب: وأهمّ الكتب في هذا المجال:

-متن الأجرومية لأبي عبد الله محمّد بن محمّد بن داود الصنهاجي (ت723هـ)

-شرح قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام الأنصاري (ت 761هـ)

-شرح ابن عقيل لألفية بن مالك (توفي ابن عقيل سنة 769هـ)

-مختصر المعاني في البلاغة لسعد الدين التفتازاني (ت792هـ)

2- في مجال المنطق

-تحرير القواعد المنطقيّة في شرح الرسالة الشمسية لقطب الدين الرازي (ت 766هـ)

- حاشية الملّا عبد الله على التهذيب (ت 981هـ)

- منطق الشفاء لابن سينا (ت427هـ)

ج- في مجال العقائد والكلام

- النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر للمقداد السيوري(ت826هـ)

- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، المتن للخواجة نصير الدين الطوسي (ت 672هـ) والشرح للعلّامة الحلّي (ت 726هـ)

د- في مجال أصول الفقه

-معالم الأصول (معالم الدين وملاذ المجتهدين) للشيخ حسن بن زين الدين الشهيد الثاني (ت1011هـ)

-قوانين الأصول: للميرزا أبو القاسم القمّي (ت1231هـ)

-الفصول: لمحمد حسين بن عبد الرحيم (ت1261هـ)

-الرسائل (فرائد الأصول): للشيخ مرتضى الأنصاري(ت1281هـ)

-الكفاية: للآخوند محمد بن كاظم الخرساني (ت 1329هـ)

د- في مجال الفقه

- المختصر النافع في فقه الإمامية: للمحقق الحلّي (ت676هـ)

- شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام: للمحقق الحلّي

- الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقية: المتن للشهيد الأول محمد بن مكي العاملي (ت786هـ)، والشرح للشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي (ت 965هـ)

- المكاسب للشيخ مرتضى الأنصاري (ت1281هـ)

1-2-3 -نظام الحلقات والتعليم الفردي: ذكرنا المسار العام للنظام الدراسي التقليدي في الحوزة، وأنه يتقوّم بثلاثة مراحل أساسية، ولكن نشير إلى غياب تقسيم هذا المسار عمومًا إلى سنوات دراسية، أو فصول محدّدة، ينتقل الطالب فيها من فصل إلى آخر، أو من صفّ إلى آخر، وإنّما هي متون يدرسها الطالب في نظام حلقات، يختار المدرّس والكتاب، وبعد استكمال الكتاب ينتقل إلى حلقة أخرى وكتاب آخر، وباستيفاء الكتب المطلوبة عادة في مرحلة المقدمات ينتقل إلى حلقات دروس السطوح، وهكذا...

1--2 -4غياب الامتحانات والانتقال الآلي: نتيجة لنظام الحلقات والمتون، يغيب الامتحان، والتقويم الرسمي في نظام التعليم الحوزوي التقليديّ، فالطالب يرتقي إلى الكتاب الأعلى بمجرّد انتهائه من دراسة الكتاب السابق، إلى أن يلتحق بحلقات البحث الخارج.

1-2-5-الاستقلال المالي والإداري:

لقد استطاعت بفضل استقلاليتها المالية، والإدارية، وعدم الانضواء تحت سلطة الأنظمة والحكومات وإشرافها، وتمويلها، أن تحافظ على كيانها بعيدًا عن تقلّبات الحكومات والسياسات وتشقّ طريقها بثبات معتصمة، رغم كل النقائص، باستراتيجيتها، وغاياتها البعيدة.

فالحوزة تعتمد على الموارد الشرعية من أخماس ونذور، وتبرّعات... في تمويل الطلاب والأساتذة وتلبية الحاجات البسيطة، وميزانيّة المراجع الذين يشرفون على سير الحوزات ودروسها، ويتحمّلون مسؤولية دعم طلاب العلم والمدرّسين من مواردهم المالية، وهي موارد كبيرة وواسعة، حتّى نُسب إلى الملك عبدالله ملك الأردن

السابق أنّه وصف واردات السيد أبو الحسن الأصفهاني بأنّها تفوق وارد بعض الدول[1].

1-2-6-دفع الطالب مبكرًا للتصدّي للتعليم، ومزج التعلّم والتعليم:

وهذه ميزة ينفرد بها النظام التعليميّ الحوزويّ، ويتجلّى ذلك في ظاهرتين مهمّتين في البناء الحوزويّ:

1- المباحثة: وهو أسلوب فريد في تركيز المعلومات وتثبيتها، ويقوم على عقد حلقات علمية بين فريق من طلاب الصف الواحد الذين يدرسون مع أستاذهم متنًا بعينه، فبعد شرح الأستاذ الدرس، والذي يفترض أن الطلاب قد استعدّوا له مسبقًا، وبعد مراجعة الطلاب شرح أستاذهم وتقرير خلاصة الدرس، ينعقد هذا اللقاء الطلّابي ليتصدّى أحدهم لدور الأستاذ، فيشرح الدرس نفسَه، والطلابُ الآخرون يُشْكِلُون ويثيرون التساؤلات، وهكذا وبالتداول يتصدّى أحد الطلاب لممارسة دور الأستاذ في كلّ مرة.

2- تدريس المتن بعد الانتهاء منه: لا ينتظر المنهج الحوزويّ التقليدي أن ينهي الطاب مرحلة دراسيّة بأكملها ليدرّس متونها، بل يشجّع الطالب الذي أنهى دراسة متن ما أن يدرّسه لطلاب مبتدئين، وهذا يجعله يتمكّن أكثر من مفاصل المادة ويتدارك الجوانب الخفيّة التي ربما ظلّت غامضة خلال حضوره حلقة الدرس مع أستاذه، فتصدّيه لتدريس الكتاب مباشرة بعد إنهائه، يفيد من جهتين: طراوة المعلومات وحضورها القوي في ذهنه والكتاب قريب العهد منه، ثم إنّ تصديه لدور الأستاذ يشكّل بالنسبة له تحدّيًا يجعله مستنفرًا للإحاطة بكلّ الجزئيات، فهو الآن (في وضعية التدريس) ليس متلقّيًا، بل مسؤولًا عن إيصال كلّ المعلومات في الكتاب لطلّابه.

(1) الآصفي، محمد مهدي: الشيخ محمد رضا المظفر وتطور الحركة الإصلاحية في النجف، ط1، قم، مؤسسة التوحيد للنشر الثقافي، 1998، ص: 23.

ثانيًا: الشيخ المظفّر (1322-1383هـ): شخصيّة مجبولة على الإصلاح:

تعدّ أسرة المظفر من الأسر العلمية في النجف، التي استوطنت منذ القرن الثاني عشر للهجرة، والده الفقيه المجتهد الشيخ محمد بن عبدالله، كان من علماء النجف، ومراجع التقليد فيها"[1]، وُلد الشيخ محمد رضا سنة (1322هـ/1904م) بعد وفاة أبيه بخمسة أشهر، فكفله أخوه الأكبر الشيخ عبد النبي المتوفّى سنة (1337هـ)، وبعد وفاة الأخ الأكبر عاش الشيخ في كنف رعاية أخيه الشيخ محمد حسين المظفر (1381هـ/1962م)، وهو أحد المجتهدين الكبار ومراجع التقليد المبرزين، وقد تخرّج على يد الشيخ محمد كاظم الخرساني صاحب الكفاية، والسيد محمد كاظم اليزدي صاحب (العروة الوثقى)، وشيخ الشريعة الأصفهاني،....من أهمّ مؤلَّفاته دلائل الصدق، وهو الكتاب الكلاميّ المهمّ الذي أبطل الشيخ ردود الفضل ابن روزبهان في كتابة (إبطال الباطل وكشف نهج العاطل) على كتاب العلامة الحلي (نهج الحق وكشف الصدق)، كما أنّ له دورة فقهية استدلاليّة، وهي شرح لقواعد العلامة الحلّي، وأمّا الأخ الثالث: الشيخ محمد حسن المظفر (ت 1375هـ/ 1956م) فهو تخرج على يد كبار العلماء أيضًا: الميرزا محمد حسين النائيني، والشيخ آغا ضياء الدين العراقي، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، وأخيه الشيخ محمد حسن.

نشأ الشيخ المظفر في أكناف هذه الأسرة الكريمة، وفيها ترعرعت قابلياته وتفتّقت استعداداته، التي امتدت واتسعت في أجواء الحلقات العلمية التي واكبها، وفي مسيرة الدرس الحوزوي الذي انتقل فيه من مرحلة إلى أخرى، وتتلمذ على يد الشيخ محمد طه الحويزي في الأدب، والأصول، كما أتقن الشعر وبرع فيه، وصولًا إلى مرحلة البحث الخارج، حيث حضر دروس أخيه محمد حسن، كما حضر درس الشيخ ضياء الدين العراقي في الأصول، ودروس الميرزا النائني في الفقه والأصول، و من أعظم

(1) الآصفي، مهدي: محمد رضا المظفر وتطور الحركة الإصلاحية في النجف، م.س، ص 58.

أساتذته في هذه المرحلة الشيخ محمد حسين الأصفهاني في الأصول، والفقه، والفلسفة الإلهية العالية. و قد تتّبع منهجيّة أستاذه في التبويب حينما كتب كتابه الرائد (أصول الفقه).

وهكذا تخرّج الشيخ على يد هذه النخبة من المشايخ والأعلام في الفقه، والأصول، والفلسفة، واستقل بالاجتهاد والنظر بشهادة شيوخه هؤلاء.

2-1 -إنتاجه العلمي:

بدأ الشيخ بالتأليف في سن مبكر، فعلى ما جاء في مذكّراته إنّ أوّل كتاب ألّفه في علم العروض في سنة (1334هـ) عندما كان يتلقّى دروسه عند الشيخ محمد طه الحويزي.

وتنوعّت تأليفاته بين كتب دراسية، ومؤلفات عقائدية فلسفية، وحواشٍ ومقدّمات علمية لبعض الكتب والمؤلَّفات والمقالات، كما ترك الشيخ بعض الأوراق كخواطر، ولا ننسى أشعاره التي جُمعت في ديوان (طُبع ضمن موسوعة الشيخ المظفر)[1].

2-1-1: المصنّفات الدراسية:

في هذا القسم من تآليف الشيخ تتجلّى مساهمته التأسيسيّة في الحوزة لإعادة كتابة المتون الدراسية، وتجديد الكتاب الحوزوي، وهنا نجد كتبه الخالدة:

-المنطق: وعدّ فتحًا علميًّا كبيرًا حلّ معضلة الطلبة في دراسة هذا الفن المهمّ في البناء المعرفي الحوزويّ، وفي منظومة العلوم الدينية، وبالخصوص العلوم العقلية، التي تأثّرت إلى حدّ بعيد بالمنطق الأرسطي، كما هو معروف؛ ولذا كان درس المنطق في مرحلة المقدمات من الدوس

(1) الطريحي، محمد جواد: موسوعة الشيخ محمد رضا المظفر، لا ط، كربلاء، العتبة العباسية المقدسة، 2016، ج9.

الأساسية التي يُبنى عليها تكوين الطالب في كلّ المراحل. وعوّض هذا الكتاب المقرّرات التي كانت تدرس في الحوزة ويجد الطلاب صعوبات جمة في فك عباراتها وفهم أفكارها، ككتاب حاشية الملّا عبد الله، وتحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية لقطب الدين الرازي (ت766هـ).

وقرّض كبار العلماء هذا الكتاب، من ذلك الرسالة التي أرسلها العلامة مرتضى آل ياسين إلى المؤلِّف، والتي أثنى فيها على هذا الفتح العلميّ الكبير كما سمّاه، ومما جاء في هذه الرسالة: "...و إنّي ما كدت أفرغ من مطالعة كتابك القيّم "المنطق الذي نعمت بالاطلاع عليه أخيرًا من حيث لا أحتسب-حتّى وجدتني قد امتلأت إعجابًا به وتقديرًا لمؤلِّفه، وإكبارا للجهود العظيمة الماثلة في كل شأن من شؤونه، فقلت إذ ذاك مخاطبًا إياك كأني أراك: ما أجدرك منذ اليوم أن تدعى "المظفّر" حقًّا، إذ فتح الله على يديك هذا الفتح المبين".[1]

ومنذ سنوات طويلة اعتمد كتاب المنطق كمتن دراسيّ في المادة في جّل الحوزات، فقّلما نجد، في العقود الأخيرة، حوزويًّا لم يدرس هذا الكتاب ولم ينهل من هذا المعين، حتّى اقترن علم المنطق في الحوزة باسمه (منطق المظفر!)، وهذه من التوفيقات الإلهية التي حالفت الشيخ، ولا نجد لها تفسيرًا إلى جانب نبوغ الشيخ، والقيمة المعرفية والمنهجية للكتاب، إلاّ إخلاصه، ونكرانه لذاته، وتفانيه في خدمة الطلاب، حتى في المراحل الأولى من دراستهم، بل إن كتاب المنطق نفسه، أصله "محاضرات أُلقيت على طلاب منتدى النشر حاول مؤلفها فيها أن يأخذ الحدّ الأوسط في أسلوب الدراسة، فلم يأخذ بالطريقة الاستقرائية كما يصنع جلّ المحدثين، ولم يبق على الطريقة التقريرية كما صنع جلّ القدماء".[2]

(1) المظفر، محمد رضا: المنطق، منشورات الرضا، ط1، بيروت،2011، ص: 429.
(2) الطريحي محمد جواد، موسوعة الشيخ المظفر، م.س، ج1، ص54.

أ-أصول الفقه:

الكتاب الدراسي الثاني الذي شكّل نقلة نوعيّة في الدرس الحوزويّ هو كتاب أصول الفقه، والذي كتبه الشيخ المظفر لتبسيط الدرس الأصولي، وليكون حلقة وسيطة بين معالم الأصول والكفاية، وهو يجمع بين بساطة العبارة والاختصار، وبين استيعاب الآراء الحديثة التي بلغها هذا العلم.

طُبع الكتاب لأوّل مرّة سنة (1378هـ/1959م) بتصدير من السيّد أبو القاسم الخوئي تحّدث فيه عن مشكلة يواجهها تدريس علم الأصول في الحوزة، حيث تطوّرت البحوث العالية في علم الأصول في كتاب الشيخ الأنصاري، والكفاية للآخوند، وكيف ظلّت الكتب التي يدرسها الطالب المبتدئ والمتوسط الكتبَ القديمةَ التي نُسخَت الكثير من مسائلها، ويعقّب قائلًا: "كنت منذ زمن بعيد أرغب في أن يُؤلّف كتاب في هذا العلم تلائم أبحاثه الأبحاث العالية، ويقوم بتدريسه على طلاب العلوم الدينية، حتّى قدّم لي العلّامة الحجّة الشيخ محمّد رضا المظفّر دامت تأييداته رتّبه من المباحث الأصولية في القسم الأول من كتابه مبادئ علم الأصول ترتيبًا جميلًا، فألفَيته - وبحمد الله - وافيًا بالمقصود وجامعًا بالموجز من القواعد والأصول التي تدور عليها رحى الأبحاث في عصرنا الحاضر."[1]

ب- محاضرات في الفلسفة: هي بالأصل دروس في الفلسفة الإسلاميّة ألقاها بنفسه على طلبة كلّيّة الفقه في مختلف السنوات الدراسية بين عامي 1958 و1962: سبع دروس في (مباحث الوجود) ألقيت على طلاب السنة الأولى، وثماني دروس في (مباحث الوجود الذهني) لطلبة السنة الثانية، وكانت محاضرات السنة الثالثة تتعلّق بمباحث العلّة والمعلول، وجاءت في سبعة دروس، وأمّا محاضرات السنة الرابعة فجاءت في

(1) انظر: الطريحي: موسوعة الشيخ المظفر، م.س، ج1، ص 57.

اثنين وثلاثين درسًا حول الفلسفة والكلام من مباحث الإلهيات بالمعنى الأخص، التي تتعلّق بوحدانية الله وصفاته.[1]

وقد جاءت هذه المحاضرات خالية من التعقيدات اللفظية والإبهامات المعنوية، التي قلمّا يخلو منها كتاب في الفلسفة، لقد وظّف الشيخ ملكاته الأدبية وقوة البيان لديه ليبسّط مبادئ الفلسفة الإلهية للطلاب، مراعيًا هذا التدرّج في المطالب، ولم يكن حينذاك كتاب بين أيدي طلبة الحوزة يقرّب الفلسفة الإلهية بهذه الطريقة.

ج- عقائد الإمامية: والعنوان الأصلي لهذا الكتاب عقائد الشيعة، وهو محاضرات دورية أيضًا ألقاها في كلّية منتدى النشر للاستفادة منها كتمهيد للأبحاث الكلامية العالية.

وما كان الشيخ قد أعدّها للنشر، ولكن لمّا حانت الفرصة رأى في ذلك مناسبة لدفع شبهات الكثيرين حول عقائد الشيعة، يقول: "وما كنت يومئذ قد أعدّدتها مؤلَّفا يُنشر ويُقرأ... وعندما حصلت المبادرة للطبع والنشر جُمعت في رسالة مختصرة موصولة الحلقات لتدرأ كثيرًا من الطعون التي أُلصقت بالإمامية، ولا سيّما كتاب العصر في مصر وغيرها.."[2] ويعقّب قائلًا: "وما يهمّنا من هؤلاء وغير هؤلاء أن يستمرّوا على عنادهم مصرّين لولا خشية أن ينخدع بهم المغفّلون، فتنطلي عليهم تلك التخرّصات وتورّطهم تلك الهجمات في إثارة الأحقاد والحزازات"؛[3] ولذلك أُعيد طبعه في مصر مع تغيير العنوان "عقائد الإمامية"، وبهذا العنوان اشتُهر وراج.

ولما كان الكتاب كما يعرف كلّ من اطلع عليه، ملخّصًا دقيقًا لأصول المنظومة العقائديّة عند الشيعة الإمامية، انتشر في أوساط الحوزات

(1) انظر: الطريحي: موسوعة الشيخ المظفر، م.س، ج1، ص: 61؛ وانظر: المظفر، محمد رضا: كتاب الفلسفة الإسلامية للشيخ المظفر، إعداد محمد تقي الطبطبائي التبريزي، لا ط.، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، لا ت.

(2) الطريحي، موسوعة الشيخ المظفر، م.س،ج1، ص 58.

(3) م.ن، ج.ن، ص.ن.

نفسها، فاعتمدته العديد منها متنًا دراسيًّا للطلبة المبتدئين في الدرس الكلامي.

وحظي الكتاب بعدد كبير من الطبعات، وتُرجم إلى أكثر من عشرين لغة حيّة. وانبرى بعض العلماء والباحثين لكتابة شروح مفصّلة له.[1]

2-1-2: الحواشي والتعليقات:

وهو نمط سائد في الكتابات في العلوم الدينية، وحواشي الكتب والمقرّرات الدراسية التي يدرسها الطالب هي أحد المصادر الأساسية التي يستعين بها طلاب السطوح بالخصوص على فهم المطالب والتعمق في الدروس، كما مرّ بنا سابقًا في الإشارة إلى مراحل النظام الحوزويّ.

وترك الشيخ في تراثه حاشية علمية على واحد من أهمّ الكتب الفقهيّة التي لا تزال معتمدَة إلى اليوم في درس الفقه الاستدلاليّ (كتاب المكاسب للشيخ الأنصاريّ)، وهي تعليقة لا تستوعب كلّ الكتاب، بل غطّت مسائل قسم البيع إلى بيع أم الولد، ومسائل قسم الخيارات إلى خيار الرؤية.

وسعى الشيخ المظفر في هذه التعليقات أن يبيّن مقاصد الأنصاري في عباراته، مع مناقشته لآراء الأعلام في الموضوع، سواء أكانت موجودة في حواشي الكتاب، أم كانت من الآراء التي نُقلت عن مجالس العلماء وأبحاثهم.

3-1-2: الكتب الفكرية والثقافيّة

وهي مجموعة متنوّعة من الكتب والأوراق التي تركها الشيخ، منها ما نُشر واشتهر، ومنها ما بقي معروفًا في دائرة ضيقة:

أ-السقيفة: دراسة موضوعيّة لحادثة السقيفة في التاريخ: سلك فيها الشيخ

(1) من ذلك الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية للشيخ محمد جميل حمود، وعقائد الإمامية بثوبه الجديد لفارس علي عامر، وبداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية للسيد محسن الخرازي.

مسلكًا فريدًا نازعته فيه عقيدته من جهة، وتاريخ أحيط بالشكوك والشبهات من جهة أخرى، ويعبّر الشيخ عن هذا الهاجس قائلًا: "ولكني أريد الآن أن أتحرّر من عقيدتي، وأتمرّد على نفسي، فأقف حرًّا على نشز من الإنصاف والتروّي، وأمسح من عيني غبار التعصّب لأرى تلك الحقيقة الواحدة، وهي واحدة في كل شيء، فهل أستطيع علاج ما بي؟ هذا ما أشكّه في نفسي، وواجب عليّ ألّا أثق بها، فما السبيل؟ ثم ما أصنع في علاج الناحية الأخرى: ناحية التاريخ المظلم؟".[1]

وبعد حيرة، وتأمّل يهتدي شيخنا المظفّر إلى المنهج الذي سيعالج فيه هذا الإشكال التاريخي العويص، هو: "وبعد التفكير والمحاولات مدة طويلة هُديت إلى شيء واحد بالأخير، أرجو أن أبتعد بسببه عن تأثير العواطف ولعبها بالعقول وأقترب من الحق والصدق، وهو أن أكثر من مراجعاتي لمؤلَّفات من أخالفه في الرأي من ناحية مذهبية، بل أجعلها هي المصدر في البحث، وظنّي بهذا سيحصل التفاعل من الجانبين: عقيدتي وهذه المصادر، لينتج ما قد يسمّونه (الوسط في الرأي) أو تكون الحقيقة قد اهتديت إليها بهذه الحيلة إن طاوعتني"[2].

أثار الكتاب إعجاب الكثيرين لتميّزه في المنهج والأسلوب، كما أثار ردودًا ونقضًا للردود، وطُبع مرّات كثيرة وترجم إلى الفارسية والإنجليزية.

ب-أحلام اليقظة: ترجمة للحكيم صدر الدين الشيرازي، وعرض لفلسفته في أسلوب حواري، وهذا الكتاب بالأصل محاضرات ألقاها في المجمع الثقافي لمنتدى النشر.

وقد يكون الشيخ نديم الجسر في كتابه (قصّة الإيمان) سلك فيه مسلك الشيخ؛ لأنّ الأخير هو الأسبق في هذا المضمار

(1) المظفر، محمد رضا: السقيفة، ط2، قم، مؤسسة أنصاريان، 1415هـ ص 19.
(2) م.ن، ص 21.

2-1-4: مقدمات وتعريفات الكتب:

كتب الشيخ مقدّمات علميّة مهمّة للعديد من الكتب والمؤلفات، وكل مقدّمة منها تعدّ دراسة متكاملة في بابها، ومن ذلك:

مقدمة لكتاب جامع السعادات للشيخ النراقي.

مقدمة لكتاب جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي.

مقدة لكتاب الأسفار المتعالية للفيلسوف صدرالدين الشيرازي.

مقدمة لحاشية المكاسب لأستاذه الشيخ محمد حسن الأصفهاني الكمباني.

مقدمة لكتاب تحفة الحكيم، وهي منظومة في الحكمة لأستاذه الكمباني أيضًا.

مقدمة لكتاب مالك الأشتر للسيد محمد تقي الحكيم.

2-1-5- المقالات العلمية:

وترك الشيخ تراثًا غنيًّا في المقالات والدراسات التي نُشرت في العديد من الصحف والمجلّات العربية، بعضها باسمه الحقيقيّ، وبعضها الآخر باسم مستعار، من المجلّات: الهاتف، والدليل، والحضارة، والنجف، والعرفان بصيدا، والفكر ببغداد، والمرشد العربي باللاذقية، والرسالة للزيّات بمصر...

2-1-6: أعمال مخطوطة:

وتوجد أعمال علميّة بقيت مخطوطة، ولم تعرف طريقها إلى النشر منها:[1]

-بحوث في علم الكلام: وهي مفقودة.

(1) انظر: الطريحي: موسوعة الشيخ المظفر، م.س، ج1، ص 67.

-رسالة عملية في ضوء المنهج الجديد أنهى منه مقدمة في أصول الدين وبعض العبادات.

- تاريخ الإسلام: وهو محاضرات ألقاها على طلابه في فترة مبكرة في السيرة كتبه بألفاظ الروايات والأحاديث، وفي هذا تأسيس لمنهج جديد في كتابة السيرة والتاريخ.

2-2- مقوّمات الإصلاح في شخصية الشيخ المظفر:

الإصلاح الديني هو دور اجتماعيّ ينبري للتصدي له الكثيرون، ولكن ثلّة فقط هم الذين يحقّقون إنجازات شاخصة، ويتركون آثارًا عميقة في وجدان الأمة، وبين ظهرانيها، وهم أولئك الذين فهموا الواقع، وأخذوا بسنن التغيير، وتوفّرت فيهم شرائط الإصلاح، وجُمعت فيهم كلّ مقوّمات العطاء، والثبات في مواجهة كلّ التحديات.

وتظافرت في شخصية الشيخ المظفر جملة من الخصال والشمائل، تمكّن معها من أن يقطع هذا الطريق اللّاحب، طريق الإصلاح الديني والتعليمي، بثبات وتسديد.

وتوفيقات الشيخ في مسيرته الإصلاحية، لا تتجلّى للقارئ أو الباحث كنجاحات على مستوى الإنتاج العلمي فقط، أو على مستوى البناء المؤسّساتي... وغير ذلك من الأبعاد المادّية الحسيّة للتجربة، بل إنّ من أجلى توفيقات تجربته، أنّها جسّدت نموذجًا أخلاقيًّا فريدًا في الإصلاح، فلعلّها من التجارب النادرة التي يفرض صاحبها على الآخرين هذا الأفق السامي من نكران الذات، وتجاوز الأنا والمصالح الشخصية، ولا يجني من كلّ عناء التجربة وَوَعْثَاء المسيرة شيئًا يُذكر!!.

ولعل في هذا الإخلاص، وفي هذه المعنوية، يكمن سرّ خلود هذه التجربة وظهورها على الكثير من التجارب السابقة واللاحقة!!!

1-2-2 النبوغ والألمعيّة:

لم يكن الشيخ عالمًا مجتهدًا في الأصول، والفقه، والفلسفة، فحسب، فهو إلى جانب كلّ ذلك من الشخصيات التي عرف عنها الذكاء والنبوغ والألمعية، وقد عُرف في الأوساط العلمية برجاحة العقل، وسداد الرأي، وعمق التفكير. ونتاجه العلمي، ونصوصه الخالدة التي خلّفها، ومسيرته الزكيّة التي خلّدها التاريخ شاهدة على كل ذلك.

2-2-2 التواضع العلمي:

والشواهد على ذلك عديدة في مسيرة الشيخ، ولكننا نكتفي ببعضها:

أ-فبعد أن استقلّ بالاجتهاد وشهد له مشايخه بذلك، كان مشغولًا بالتدريس في الدراسات العالية في الفقه، والأصول، والفلسفة، هذا خارج مدارس منتدى النشر، ولكنّنا نجده داخل هذه المدارس قد درس الأدب، والمنطق، والفلسفة، والفقه، والأصول، من المستوى الأول إلى المستوى العالي، ولم تمنعه مكانته الراقية والمرموقة داخل الحوزة، ولا سمعته العلميّة، من أن يحاضر على الصفوف الأولى من مدارس المنتدى!!

ب- عدم استنكافه عن القيام بأبسط الأعمال في مؤسّسات المنتدى وهو عميد جامعتها،كأن يعوّض سكرتير الجامعة لكتابة رسالة مثلًا! أو غيرها من الأعمال البسيطة التي ينوب فيها غيره، ممّا يترفّع عادة رئيس المؤسسة ومديرها عن القيام بها.

ج-ما نستشفّه من بساطة، وليونة في التعامل مع الآخرين، وانسيابيته في التعاطي مع الأحداث من خلال قراءاتنا لمذكراته، ففي كثير من الوقائع، والمواقف التي يحدّثنا عنها، أو الوقائع التي يصفها يبدو الشيخ كأيّ إنسان بسيط، لا ينكر نقاط ضعفه، ولا يخفي هواجس نفسه،كالكثيرين من أصحاب المذكرات الذين يتسربلون بأنويّتهم المقيتة، ويحاولون إخفاء

العيوب وتعظيم الذات،...بل يُصدم القارئ وهو يتصفّح أوراق مذكّرات الشيخ من صراحته الملفتة، وشفافيته العالية، هذا أمر يندر وجوده في الرموز والقادة !(وسيأتي لاحقًا ذكر نماذج من هذه النصوص الجريئة).

3-2-2 الشخصية الاجتماعية الجاذبة: يحتاج المصلح إلى شخصية اجتماعية جاذبة تتميّز بالحضور اللافت بين الجموع، والمقبولية عند النّاس، والشيخ المظفر كان يحضر المجالس العامّة والخاصّة، محبوب من مختلف الطبقات الاجتماعية، معروف بطرائفه ونكته التي يطلقها على السجيّة، يحدّثنا الشيخ الآصفي عن تلك الأجواء النجفية التي تغمرها أجواء الفكاهة والمعارضات الشعرية، ويسوق نماذج من تلك اللطائف ويضيف: "وكذلك كان الشيخ محمد رضا المظفر يكثر من ارتياد هذه الأندية، أو يحلو له أن يخلق هذه المناسبة التي يهتزّ لها الشاعر النجفي ويستخفه، يتعاطى فيها الشعر الرقيق الذي يجمع إلى الرقّة سلامة التعبير وجمال الأداء."[1]

كما نلمس هذا الحس الاجتماعي في تحليلنا لإرثه نثرًا وشعرًا، فهو لم يترك مناسبة إلّا وأدلى بدلوه فيها، وأبدى رأيه في مقالة أو قصيدة عصماء، ولم تمر على النجف مناسبة عظيمة، كتأبين العلماء، أو إحياء المناسبات الكبرى،... إلا وكان للشيخ حضور مميّز،"وإذا نظرت إلى الأستاذ المظفر في مقتبل شبابه، لرأيتَه شاعرًا في بيئته النجفية الأدبيّة، يشارك في مهرجاناتها، وعمد إلى صبّ أفكاره في قالب جديد في النجف، وهو المشاركة في المناسبات الكبيرة، والاحتفالات المتميّزة، والمحافل الثقافية، بخطبه الارتجالية المؤثّرة التي جمعت إلى أصالة البيان عمق التفكير، وموضوعية الأهداف، وهو أول خطيب رأته عيناي مرتجلًا في مسجد الهندي والمجمع الثقافي لمنتدى النشر، ولدى استقبال وفود البلاد العربية والإسلامية التي

(1) الآصفي: محمد رضا المظفر وتطور الحركة الإصلاحية في النجف، م.س، ص 47

تؤمّ النجف في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، بل في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، وكان لهذا المنهج صدى اعتزاز وإكبار في النجف...كان المظفر بهذا ثانيًا للإمام كاشف الغطاء، المعروف بخطبه العصماء في الأزمان."[1] والمتفحّص لمقالاته المنشورة هنا وهناك ولديوان شعره[2]، سيبهره هذا الحضور، ويتعجّب من هذه المواكبة. وأعرضنا عن إيراد نماذج من شعره رومًا للاختصار، وبإمكان القارئ العود لديوانه المنشور.

4-2-2 الوعي والإحساس بالمسؤولية:

كان الشيخ المظفّر من طليعة العلماء والمجتهدين، الذين قرؤوا واقع الأمة، وأوضاع الحوزة قراءة ثاقبة، وكانت لهم بصيرة نافذة، فشخّصوا مكامن الأزمات، وبادروا إلى مشاريع إصلاحية، وبرامج تغييرية، أداء للمسؤولية الشرعية، والواجب الديني الذي يفرض على العالم أن يبادر إلى الإصلاح، ولا يستكين إلى الواقع المتردّي ويهادنه، غير آبه بحبط العزائم، وغير معنيٍّ بلوم اللائمين، ممن تتضرّر مصالحهم برياح الإصلاح، وتهتزّ لها مراكزهم.

إنّ الشيخ المظفر من أولئك الأعلام الذين يعرفون زمانهم، ويتابعون أوضاع الأمة، ويعايشون محنها والملّمات التي تلمّ بها. "ولم يشعر في يوم من الأيام أنّه يعيش وحده في عزلة اجتماعية في زاوية من بيته المتواضع أو جانب من مؤسسة منتدى النشر، بل كان يشعر دائمًا، بوضوح وقوّة، أنه جزء من الأمّة الإسلاميّة يعنيه ما يعنيها من أمر، ويمسّه ما يعرض لها من سوء."[3] وقد سجل لنا التاريخ مواقفه الخالدة تجاه العديد من قضايا الأمّة

(1) الطريحي: موسوعة الشيخ المظفر، م. س، ص144
(2) انظر: المظفر: ديوان شعر المظفر، المنشور من أعمال موسوعة الشيخ المظفر، جمع وتعليق: محمد رضا القاموسي، (ج9).
(3) الآصفي: محمد رضا المظفر وتطور الحركة الإصلاحية في النجف، م.س، ص 76

الإسلاميّة: كالقضية الفلسطينية، والجزائرية، والعدوان الثلاثي على مصر....

أمّا فيما يرتبط بالمؤسّسة الدينيّة والحوزة العلميّة، وعموم المجتمع الدينيّ، فالشيخ واكب أحداثًا كبرى في تاريخ المرجعية وعايش أحداثًا جليلة: كثورة العشرين، وأحداث المشروطة،... والحرب مع العثمانين... وهجوم الوهّابيّين على كربلاء... وكل هذه الأحداث أكسبته وعيًا ثاقبًا ورؤية نقدية للواقع تتجلّى فصولها إذا قرأنا مدوّنته "آراء صريحة" [1]

ومن هذه الآراء ما كتبه حول العلماء ودورهم في العصر الحاضر[2] [أي في عصرالشيخ المظفر] والذي شرح الهوّة التي تفصل بين بعض العلماء، وبين العصر وإيقاعه السريع، وكيف أن الأجيال الجديدة جرفتها الثقافة الجديدة، وغدا يفكّر تفكيرًا لا يشبه تفكير الأجيال السابقة، وحذّر من أن هامش الزمن يضيق، وأنّ فرصة التأثير في الجيل الجديد دينيًّا تضيق، واشترط لأجل ذلك إصلاح الخطاب ومعالجة العيوب والثغرات وأكّد على عدم الجمود والتمسّك بالموروث والخلط بين ما هو دين وعقيدة وبين ما هو عادات وأعراف.

2-2-5 الحسّ النقديّ والحرّيّة الفكريّة:

من يطالع أوراق الشيخ المظفر التي طُبعت بعد وفاته، يلفته الحسّ النقدي العميق عند الرجل، فهو يرصد الظواهر المَرَضيّة التي تنخر المجتمع، والحوزة، ويتألّم لها عميق الألم، ونراه في موارد كثيرة يبثّ آهاته وشجونه لهذه الأوراق التي وصلتنا، كاشفة لنا عن مدى حرية هذا الرجل في فكره، ووعيه، ووجدانه.

وكشاهد على هذا التوصيف نسوق تأملاته في قاعدة اللطف، وهي قاعدة مركزية في الكلام الشيعي، وعلى أساسها نثبت النبوّة، والإمامة،

(1) انظر: القاموسي، محمد رضا: من أوراق الشيخ المظفر، لا ط، بغداد، المكتبة العصرية، 2014.
(2) م.ن، ص 205

وعصمة الأنبياء والأئمّة، ولزوم وجود إمام في كلّ عصر...، والشيخ نفسه اعتمد هذه القاعدة في بحوثه العقائدية [1]، ولكنه في أوراقه يطرح تساؤلات عميقة تدعو المتكلمين للتدقيق أكثر في هذه القاعدة، فهو يتساءل: "قاعدة اللطف العقليّة لا يمكن أن يستثنى منها بشر عن بشر، فلماذا وصلت الحجة إلى المسلمين ولم تصل إلى غيرهم [وهم أكثر سكان المعمورة]؟...[2]ويفصل هذا الإشكال ليعقب قائلًا: فلذلك على المتكلمين من علماء الشيعة أن يحلوا هذه المشكلة في هذا العصر وإلا فستبقى (قاعدتهم) مهددة ولم أجد في كتب أصحابنا ما يشفي الغليل في هذه الناحية."[3] كما ناقش مسألة غيبة الإمام المهدي وطرح تساؤلات حول الانسجام بين اللطف الإلهي وغيبة الإمام.

ولسنا في مقام التحقيق في الموضوع [4]وإنما أردنا أن نستدل على التفكير الحرّ عند الشيخ الذي يتخطى أحيانا الأطر المذهبية.

2-2-6-إيمانه المطلق بموقع العلماء ورسالتهم في المجتمع:

رغم إدراك الشيخ، ووعيه بكل هذا الواقع المؤلم للمؤسسة الدينيّة، فإنّ إيمانه لا يتزعزع بموقع العلماء ودورهم الجسيم في المجتمع، فقناعته العقائدية لا يزحزحها هذا الواقع المتردّي؛ ولذلك نجده في (آراء صريحة) يستهلّ انتقاداته القاسية لهذه المؤسسة بهذه الحقيقة: "إنّ من المسلم به في الفقه الجعفري أن العلماء المجتهدين هم نواب الإمام في عصر الغيبة، لهم ما للإمام من الحقوق في ولاية الناس، فليس هم فقط مرجع الفتوى في الأحكام الفرعية كما قد يتوهّمه بعض الناس، بل الذي فرضه

(1) انظر المظفر، محمد رضا: عقائد الإمامية، ط11، بيروت، دار الصفوة، 2012، (بحث النبوة، بحث المعجزة، بحث الإمامة، بحث إمامة المهدي...).
(2) القاموسي، محمد رضا: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 188.
(3) م.س، ص. ن.
(4) طرح الشيخ في أوراقه خطوطًا عريضة للجواب عن هذه الإشكالات، راجع: القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص: 189و190.

لهم الفقه بمقتضى النصوص الواردة عن الأئمة عليهم السلام أنهم الحكام الذين لا يرد حكمهم بحال في جميع الشؤون العامة والخاصة، وهم أولياء من لا ولي له، بل لهم الحقّ في إقامة الحدود والتعزير والتأديب فيما إذا كانوا مبسوطي اليد، أي إذا لم تكن هناك سلطة تحول دون سلطتهم، بل لهم الولاية العامة المطلقة كولاية الإمام، وإن كان العلماء مختلفين في إعطاء هذه السلطة المطلقة للمجتهد".[1]

وفي كتابه عقائد الإمامية يؤكّد هذا القناعة الراسخة في عقيدته بالولاية العامة المطلقة للفقيه: "وعقيدتنا في المجتهد الجامع للشرائط أنّه نائب للإمام عليه السلام في حال غيبته، وهو الحاكم والرئيس المطلق، له ما للإمام في الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والراد عليه راد على الإمام...." [2]

ولعل قناعته هذه، المتجذّرة هي التي دفعته وطوال مسيرته لأن يتصدى لكل هذه الأدوار والمهام التي ينوء بها حمل عصبة من الرجال، ويكون دائمًا حاضرًا في القضايا الكبري المرتبطة بمصير الأمة، سواء داخل العراق، أو خارجه، ومن ذلك موقفه الرافض لقانون الأحوال الشخصية الصادر عن الحكومة العراقية سنة 1959م، ومراسلته الجهات المعنية، طالبًا إلغاءه، ومن مواقفه الجريئة رفض دفن الشاه رضا بهلوي في النجف سنة 1944م، ومراسلته للشيخ الأزهر في العدوان الثلاثي على مصر وإبداء كل التعاطف، موقفه المؤيد للمتظاهرين الذين خرجوا تنديدًا بالعدوان الثلاثي...، وغيرها من المواقف الإسلامية المشرّفة.

(1) م.ن، ص 194.
(2) المظفر، محمد رضا: عقائد الإمامية، م.س، ص 58.

2-2-7 الأخلاقية والمعنوية:

أشرنا سابقًا إلى التميّز الأخلاقي والمعنوي لتجربة الشيخ، واعتبرنا ذلك مكمن وسرّ النجاحات التي حققتها التجربة، والظلال الوارفة التي خلّفتها، والثمار اليانعة التي أنتجتها، فهو شخصية زاهدة نشأ في بيت متواضع، وبسيط، أعرض عن مجد الزعامة والمنافسة عن مواقع الصف الأول من صفوف أساتذة البحث الخارج والسطوح العليا في الحوزة، وانصرف لخدمة الطلاب والمجتمع وإنقاذ هذا الدين من الاندثار في الأجيال اللاحقة، لم يفكّر الرجل في مجده الشخصي، أو في مستقبله العلمي، وإنّما ذاب وفِنيَ في خدمة الدين وخدمة الأمة، وهذا قمّة الإخلاص.

وإذا أردنا أن نفهم سرّ هذه المعنوية في شخصية الشيخ، فيمكن أن نُرجع ذلك: إضافة إلى التربية والنشأة في هذا البيت العلمي البعيد عن زخرف الدنيا وبهارجها، ومغرياتها، وأطماعها، تتلمذه على يد العارف السيد علي القاضي، واهتمامه منذ شبابه بالقضايا الروحية وأسرار عالم الروح، وهذا الاهتمام هو الذي دفعه إلى التعمّق في الفلسفة من جهة، كما كان دافعًا له لمواكبة الفكر الحديث، وما يصدر خاصّة في مصر من مجلّات وطروحات جديدة من جهة أخرى.

وهذا الجانب يعدّ أحد المفاتيح الأساسية لفهم شخصية الشيخ المظفر، ولكن للأسف لم يلتفت إليه جل الذين كتبوا عنه بل ربما كلّهم!!!

ثالثًا: شموليّة الرؤية الإصلاحية للشيخ المظفر وإنجازاتها:

يعدّ الشيخ المظفّر في طليعة المجدّدين الذين سعوا إلى برنامج إصلاحي شامل في كل الأبعاد التي تتطلّبها الساحة النجفية بالخصوص والساحة الإسلامية عمومًا:

أولًا: إصلاح النظام الدراسي وتطوير المناهج (تجديد المقررات، أساليب التدريس، أساليب التقويم، الأنشطة الموازية)

ثانيًا: إصلاح المنبر الحسيني

ثالثًا: تعميم الثقافة الإسلامية

رابعًا: تطوير أساليب التبليغ والإرشاد

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف أسّس أو على الأقل، شارك في تأسيس منتدى النشر عام (1354هـ)، وكلّية منتدى النشر (عام 1362هـ)، ثمّ كلّية الفقه عام (1376هـ) اللتين انبثقتا من الجمعيّة المذكورة، وتولّى أمانة سرّ الجمعية في أول الأمر، ثمّ رئاستها وعمادة الكلّيّتين.

ومع تصاعد المدّ الشيوعي في العراق، ومبادرة نخبة من العلماء لتأسيس جماعة العلماء (عام 1379هـ) انضمّ إليها الشيخ أيضًا.

ويحدّثنا الشيخ في أوراقه عن تجربته، ومشاريعه: "لقد سايرت بنفسي تطور فكرة الإصلاح حتى هذه الساعة [يقصد تاريخ كتابة مذكراته]، وسأعطيكها وليدة نشأت في أحضان الاجتماعات الصامتة، ومرّت عليها أدوار....تألّفت إبتداءً من (عام 1343هـ) أي قبل 15 عامًا عدّة اجتماعات أشبه بجمعيات سرّية أو مجالس تمهيدية للتفكير في طريق الإصلاح، وكسب الشعور العام، وأتخطّر أنّي اشتركت في أحدها وكنت كتبتها، وأعضاؤهم كلهم من الشباب الديني ذلك اليوم، وجماعات أخرى هنا وهناك، منها التي اتصلنا بها، وهم أكبر منّا طبقة اشترك أكثرهم بعد ذلك في منتدى النشر، ومحورها الثلاثة المعروفون بالصفوة أو أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع (الشيخ محمد جواد الحجامي عضو أساسي في المنتدى ومعتمده السابق، والشيخ محمد حسين المظفر عضو الهيئة المشرفة، والسيد علي بحر العلوم عضو أساسي في المنتدى)".[1]

(1) القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 131.

ويشرح الشيخ أجواء التكتّم والخوف التي اكتنفت تلك التجارب، والتي دعتهم لاختيار اسم منتدى النشر على أنّ هدف الجمعية هو نشر الكتب والعلم، وهو هدف لا يتوّجس منه أحد، ولكن في الصميم كان الهدف هو إحداث كل تلك الإصلاحات للنظام التعليمي الحوزوي، وتجديد المنبر الحسيني، وأساليب التبليغ...، ولكن مع كل تلك الاحترازات وجد المشروع صدًّا واعتراضات، وتكشف لنا يوميات الشيخ المظفر العراقيل التي افتُعلت مع انطلاق المشروع وبداياته.

1-3: قراءة تحليلية موضوعية للمشروع

كانت خطط الشيخ تتخطّى الإنجازات التي تحققت فعلًا على الأرض، فالقانون الأساسي لمنتدى النشر يشي بأبعاد كثيرة للإصلاح المنشود، يقول الشيخ في أوراقه: "وضع المنتدى نصب عينيه أهدافًا معيّنة للسير عليها من يوم تأسيسه، يجمعها نصّ المادة الثانية من نظامه الأساسي... ويمكن تفصيل أهدافه فيما يلي: 1- تنظيم الدراسة الدينيّة لثلاثة أغراض:

1- تقصير مدّة الدراسة لتقريب الطالب الديني إلى الغاية الكبرى وهي (الاجتهاد)

2- إعطاء المتخرّج من المعاهد الدينية أفقًا أوسع من المعلومات التي تقتضيها ضرورة هذه العصور

3- تهيئة المتخرّج كاتبًا وخطيبًا ليستطيع أن يبلّغ رسالة الدين

2-تنظيم حياة رجال الدين ورفع مستوى حياتهم الاقتصادية لغرض الانصراف إلى تحصيل العلم والدعوة إلى الدين وبقاء عزّهم فيه.

3-رفع مستوى المركز العلمي والديني للنجف الأشرف، والمحافظة على ما لها من مرجعية عالمية في الرجوع في التقليد.

4- نشر الثقافة الدينية العامة والدعاية إلى الأخلاق الإسلامية الصحيحة.

5-رفع المستوى الأخلاقي بين طلاب العلوم الدينية والدعوة إلى العدالة الصادقة.

6- خدمة اللغة العربية الفصحى وآدابها وتعميم التكلّم بها.

7-نشر وطبع الكتب النافعة طبعًا سليمًا متقنًا.

8- تشجيع التأليف والمؤلفين."[1]

ولا يغفل الشيخ التأكيد مرّة أخرى على أنّ هذه الأهداف جاءت نتيجة الشعور بالحاجة إلى تدارك النقص الذي حدث أو الذي يمكن أن يحدث في المجتمع الديني، بل في العالم الإسلامي عمومًا. ومن الطبيعي أنّ الذي يملك وعيًا شخَّص فيه أبعاد الخطر.

ولنحلل مسارات التجربة في مختلف الأبعاد:

3-1-1على مستوى نشر الكتب: حقّق منتدى النشر نجاحات مثيرة، فكانت باكورة أعماله تحقيق مخطوطة تأويل القرآن للسيد المرتضى، وتفسير آلاء الرحمان للشيخ جواد البلاغي، ثمّ توالت الكتب العلمية القيّمة التي شكّلت إضافة نوعية إلى المكتبة الإسلامية حتى اليوم، ومن ذلك كتاب السقيفة للشيخ نفسه والذي عرّفنا به آنفا، كتاب الشيعة والإمامة للشيخ محمد حسين المظفر، الزهراء للسيد محمد جمال الهاشمي، وشاعر العقيدة، وزرارة بن أعين، ومالك الأشتر للسيد محمد تقي الحكيم...

وجاء في تقديم الشيخ لهذا الكتاب الأخير (مالك الأشتر) طموحات الشيخ على هذا الصعيد ورؤيته في هذا المجال: "إن هاتفًا في دخيلة نفسي -لا أعرف مأتاه على التحقيق- يهتف بي منذ عشرين عامًا تقريبًا إلى ضرورة تأليف مؤسسة تعنى بتوجيه حركة النشر والتأليف في النجف

(1) القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 154.

الأشرف... ولست أنا الوحيد أشعر بهذا الشعور، فمعي جماعة غير قليلة كان همّهم ذلك، حتى كادوا أن يؤسّسوا هذه المؤسسة قبل خمسة عشر عامًا. وبدافع فكرة هذه الجماعة شرع العلّامة الجليل والحجّة الكبير المرحوم محمد جواد البلاغي في تأليف آلاء الرحمان في تفسير القرآن، ليكون باكورة أعمال المؤسسة التي خُنقت في مهدها. واستمرّ جهاد الشيخ المجاهد في تأليف كتابه حتى وافاه الأجل بعد نشره للجزء الأول في حياته على نفقته الخاصة". ويعلل هذا الشعور الذي استبدّ به إلى موقع النجف العلميّ، فهي منذ قديم القرون بلاد علميّة وعاصمة المرجعية، وجامعة رائدة لتعليم العلوم الدينية والعربية، ولها سوق أدبي رائج، وفي كلّ عصر لها أدباء ومؤلفون، "إلاّ أنّ الذي ينقصها-ويجب الاعتراف به- تنظيم نشر ما تضمّ كنوزها من مؤلَّفات قديمة وحديثة، وتوجيه التأليف على النحو المرغوب فيه في هذا العهد، وتشجيع المؤلِّفين والناشرين في عصر راجت فيه الطباعة واتّسقت حركات الثقافة واتسعت دور النشر، وحُرمت منها بلادنا المقدسة." [1]

2-1-3 مستوى الخطابة وإصلاح المنبر الحسيني: خطّط الشيخ فيما خطّط له للسير قدمًا في المحاولات التي سعت للنهوض بالمنبر الحسينيّ وتطوير الخطاب، حيث نجده يتحدّث في نصّ من نصوص (أوراق الشيخ المظفّر) عن: "كلّية الوعظ والإرشاد تخوّل المتخرّج أن يعظ باسم الدين، وأن يكون ذاكرًا للحسين عليه السلام، وأن يتوكّل عن المقلد العام المَنْوِيّ السعي في فتحها في فرصة قريبة إذا سهّل الله تعالى."[2]

وبالفعل، شكّل المنتدى لجنة الوعظ والخطابة برئاسة الخطيب العراقي الشهير الشيخ محمد علي قسّام (1299-1373هـ) وعضوية نخبة من الخطباء المعروفين، كان هدف هذه اللجنة تهذيب ناشئة خطباء المنبر

(1) الحكيم، محمد تقي: مالك الأشتر، ط1، بيروت،المؤسّسة الدولية للنشر، 2001، ص 7و8.
(2) القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 1156.

الحسينبي وتكوينهم تكوينًا علميًّا رفيعًا يليق بَحَمَلة رسالة الإمام الحسين عليه السلام، وقد باشرت فعلًا تدريس صف تجريبي، في برنامج يحوي علوم الفقه والحديث واللغة العربية وأصول الدين، ولكن الصف توقّف قبل شهر من التجربة بسبب الاعتراضات العنيفة التي ثارت ضد المشروع، متّهمين القائمين عليها بأنّهم يريدون تحديد نوع الخطاب، وتحديد أشخاص الخطباء، وتهميش ذكر الإمام الحسين عليه السلام... إلى غير ذلك من التّهم الباطلة، حتّى كتب أحدهم منددًا بالمشروع ومن يقف وراءه:

يا منتدى النشر لا وُفّقت للنشر أبدلت -ويحك - دين الله كفرًا

وهكذا، ونتيجة هذه الأجواء المتوتّرة، أُلغي المشروع، لقد فشلت خطط الشيخ في إصلاح المنبر!

3-1-3 النظام التعليميّ:

يتوهّم الكثيرون أن جهد الشيخ المظفّر على مستوى إصلاح النظام التعليمي الحوزوي يقتصر على تأليفه لبعض المقررات الدراسية المعاصرة، وتأسيس كلّيّة منتدى النشر، غافلين عن الإطـار الكلّي لهذا الجهد، واستراتيجيّة الشيخ بعيدة المدى، جاهلين بعمق فلسفة رؤيته الإصلاحية الرائدة.

فالشيخ ومن خلال فهمه العميق لمشاكل التعليم التي تواجه النجف خصوصًا، والأمة الإسلامية عمومًا، والتي وظّفها الاستعمار لضرب مقوّمات الأمّة وتغريب أبنائها، فأنظمة التعليم الحديث كانت أكبر تهديد يُحدِق بأجيال الشباب في وعيهم ودينهم وأخلاقهم، وبالتالي فإنّ مستقبل المؤسّسة الدينية نفسها في خطر؛ لأنّه مع مرور الزمن، ستجرفها الأمواج البشرية من خرّيجي مدارس وجامعات التعليم الحديث القائمة على العلمنة ومعاداة الدين، ومجافاة الأخلاق. ومع مرور الزمن تنقرض تلك الفئة الحوزويّة من الأعلام والطلاب، ولن يلوذ بالتعليم الديني أحد؛ لأنّ

الرأي العام الذي سيسود سيكون رأيًا معاديًا للدين، هازئًا بالتعليم التقليدي، معرضًا عن رموزه ومؤسّساته.

فعمل على تأسيس مدارس دينية ابتدائية تعتمد المنهاج الرسمي مطعمًا بمواد دينية وتوجيهية وأخلاقية، وكذلك متوسطات وثانويات، وذلك في العديد من محافظات العراق.

وأسس كلية منتدى النشر (كلية الفقه)، وكان يخطط لتأسيس كلية التبشير، وكلّية الأدب والتاريخ، في سياق برنامج بعيد يستهدف تأسيس جامعة الكوفة المؤلفة من عدّة كلّيات، جامعة يختص فيها طلابها في علوم شتّى، ولكنّهم يتمتّعون، بتكوين دينيّ وأخلاقيّ، وثقافة إيمانية تخول لهم أن يؤدّوا أدوارًا إيجابية في تثقيف المجتمع والنهوض به، ويحقّقون التكامل بين الجامعة والحوزة المؤسّسة الدينية في النجف.

فالرؤية الإصلاحيّة للتعليم عند الشيخ المظفر تقوم على إيجاد نظام تعليميّ حديث يقوم على التديّن والأخلاق والانتماء للإسلام، في الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، حتى لا يُحرم الأبناء من التعليم مع توجّس الناس خوفًا من التعليم الحديث، وعزوف الكثير من العائلات عن تعليم أبنائهم في المدارس الحكومية. ومن جهة أخرى إيجاد تعليم جامعي تخصّصي في العلوم الدينية بمعناها الواسع، تتكامل مع الحوزة، وتتجاوز سلبياتها وعوامل القصور فيها، وتستفيد في المدى البعيد من مخرجات تلك الشبكة من مدارس التعليم العام.

وتحدّث الشيخ في أوراقه عن هدف الكلّية: "لم تكن الفكرة التي لأجلها أُسّست كلّية الفقه بالنجف الأشرف هي مجرّد فتح كلّية منظّمة لتخريج عدد من المثقفين من ذوي الشهادات العالية، بل الغرض الذي استهدفته جمعية منتدى النشر من تأسيسها، وتأسيس المدارس الدينية الأخرى هو تطعيم الدراسة الدينية بالمعارف التي يحتاجها المبلّغ في نشر الدعوة

الإسلامية في هذا العصر، وتسليح المبلّغ بالشهادة العالية التي يعترف بها العرف الجديد، بالإضافة إلى محاولة إدخال الدراسة المنهجية إلى جامعة النجف الكبرى وتطوير الدراسات فيها بالنسبة إلى المراحل الدراسية الأولى".[1]

ويقصد الشيخ بالمراحل الدراسية الأولى: مرحلتي المقدمات والسطوح؛ لأن مشروعه في تفعيل وإصلاح النظام الحوزوي لم يشمل مرحلة البحث الخارج، فهو بطبيعة نظامه القائم[2] (نحن نتحدّث عن النظام التقليدي طبعًا) على دروس حرّة من خارج المتن، وعلى منهجية بحثية حوارية (بحث وإعداد المطلب قبل الدرس، والمناقشة المعمّقة خلال الدرس) يساهم فيها كلٌّ من الأستاذ والطلاب، فهو نظام مستقيم لا يحتاج إلى تعديل، كفيل بتحقيق أهدافه المتمثّلة في تنمية القدرات الاستنباطية للطالب، وإعداده للاستقلال في النظر في النصوص والأدلة. ولكن التساؤل الذي يفرض نفسه في هذا السياق: ماذا وراء هذه الرؤية الإصلاحية للتعليم الحوزوي خصوصًا؟

2-3 -الخلفية الإصلاحية لمشروع الكلية:

كان الشيخ، وهو العالم الحوزي المتضلّع والمثقف المعاصر المواكب لحركة الفكر والثقافة والتطور التعليميّ، يعي جيّدًا: مظاهر النقص والقصور في النظام التعليمي الحوزويّ، ويدرك جيدًا مكامن الأدواء في هذا النظام، يقول في مذكّراته: "هذا هو التفكير الذي يبدو ظاهرًا على بعض رجالنا الذين كانوا يحلمون بإصلاح نواقص الدراسة العلميّة في معاهد النجف الأشرف، فإنّ هذه النواقص: بفقدان نظم التربية والتدريس في الامتحانات والمواد العلمية، والأوقات، والشهادات، كانت تهدّد المفكّرين منّا بشلل

(1) القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 138.

(2) للأسف حتى هذا النظام الدقيق الذي حافظ عليه الشيخ في درس البحث الخارج فَقَدَ الكثير من رونقه في العصور الأخيرة عند الكثيرين وفي العديد من الأوساط، حيث غدا الاعتماد على تقريرات بعض المراجع والعلماء الكبار عرفًا قائمًا، خاصة تقريرات السيد الخوئي، وغدا درس الخارج أشبه بتعليقة على رأي السيد الأستاذ، أو صاحب التقرير الذي اتخذ متنًا. !!!

الحركة العلميّة في مستقبل الجامعة [النجفيّة] القريب أو البعيد، يوم أن اصطدمت سفينة هذه الجامعة القديمة بتيّار هذا العصر الجديد"[1]: فالرؤية التي تبنّاها لم تأت جزافًا، وإنّما تعكس وعيًا تفصيليًا بكل تجلّيات المعاناة والتهميش والقصور التي يشكو منها هذا النظام وطلّابه.

ويجدر بنا للوقوف على عمق الرؤية الإصلاحية للشيخ، وعوامل خلودها أن نحلّل قليلًا سلبيّات النظام الحوزويّ بعد أن بيّنا فيما سبق مقوّمات هذا النظام ونقاط القوة فيه:

3-2- 1- القصور الحقوقي:

إنّ حرصَ الشيخ المظفر على الاعتراف القانونيّ بمدارس المنتدى وكلّيّاته ينبع من حقيقة مرّة عانى منها طلاب الحوزات طويلًا، وهي ضياع الكثير من حقوقهم التي يمنحها القانون لطلاب الجامعات، فالحوزيون لا يتمتّعون البتّة بهذه الامتيازات التي تمنحها الدولة لطلاب الجامعات.

ومن أهم هذه الحقوق، وكانت ربما على رأس أولويات الشيخ المظفر، الاعترافُ بالشهادة العلمية؛ فهي تمكّن خريج الحوزة من العمل في بعض المؤسسات التعليمية أو الإدارية، والأهم تمكّنه من استكمال دراساته العليا (الدكتوراه) في جامعات العراق، وكذلك في الخارج، وقد استطاع عدد من خرّيجي كلّية الفقه فعلًا أن يحصلوا على الدكتوراه في اختصاص الشريعة والتاريخ والأدب من جامعات بغداد والقاهرة...

3-2-2-إهمال العناية بوسائل التدريس:

ظلّت الحوزة التقليدية تعتمد الأسلوب التراثي في التعليم القائم على الحلقات والمتون والتواصل اللفظي مع الأستاذ، فالدرس يتمحور أساسًا حول كتاب: أي مقرّر يتصدّى أحد المشايخ لقراءة فقراته وشرحه، وطلبة

(1) القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 129.

يتجمّعون حول هذا الشيخ يتابعون على كتبهم ويستمعون إلى شروح الشيخ، وليس مهمًا المكان والفضاء، أو الوسائل الأخرى التي نجدها في صفوف التعليم الحديث.

وقد التفت إلى إهمال مسألة الفضاء المكاني بعض الباحثين الذين كتبوا عن الحوزة العلمية، فأشار قائلًا: "عدم إعداد أماكن للدراسة ضمن الحوزة العلمية في النجف تتوافر فيها المستلزمات الصحّية اللازمة، أو وسائل الراحة التي تساهم دون أدنى شكّ في زيادة تقبّل الطالب لدروسه، وتساهم كذلك في زيادة استيعابه".[1]

لم تكن هذه المسألة غائبة في تنظيم الشيخ المظفر لمدارس المنتدى، بل حرص أيضًا على الاستفادة من الوسائل التعليميّة الجديدة، وواجه الكثير من العنت بسبب الآراء المحافظة التي رفضت أيّ تغيير في شكل الدرس وأدواته، بل رفضت حتى الجلوس على الكراسي، وكأن الجلوس على الأرض مقوّم لتعلّم الفقه والأصول، وبدونه يفقد التعليم الديني جوهره!: "وقد لمسنا نحن فعلًا في جمعية منتدى النشر مساوئ هذا الجمود وأثره علينا، فإنّ المفروض في هذه الجمعية أن نربّي ناشئة دينية تتقارب مع ناشئة الجيل الجديد في أفكارها، وتكون حلقة اتصال بين القديم والجديد، ولكن أشكل المشاكل عندنا نصب التلفون! وموضوع الكراسي والرحلات للطلاب، والأسلوب الجديد في التدريس والتأليف للكتب الدراسية، فإنّ رجال الدين ينظرون إلى هذه الأمور بالنظر الشزر، حتّى عدّ بعضهم ذلك تمردًا على الدين بحجج واهية يثيرها في أذهانهم ذلك الخلط بين العادات الدينية وغيرها لتي نعبّر عنه بالجمود".[2]

ومن نتائج هذا الإعراض في الاستفادة من الأساليب والطرائق الحديثة في التعليم، هدر كثير من الوقت، وعدم تحقيق الأهداف الواقعية للدرس،

(1) البهادلي: الحوزة العلمية في النجف معالمها وحركتها الإصلاحية، م.س، ص 299.
(2) القاموسي: من أوراق الشيخ المظفر، م.س، ص 217.

ولنعطي مثالاً ذكره الشهيد مطهري في معرض حديثه عن النظام الحوزوي: "في الحوزة العلمية يدرسون الأدب العربي، ولكن بطريقة مغلوطة، بحيث إنّ الطلاب بعد سنوات من الدراسة لا يتعلّمون اللغة العربية على الرغم من أنّهم يتعلّمون قواعدها، فلا يقدرون على التكلّم ولا الكتابة بها."[1]

3-2-3-غياب نظام التقويم والامتحانات:

التقويم جزء أساس من نظام التعليم الحديث، وهو بمختلف أنواعه وأشكاله يسدّد مسار التدريس ويصلح اعوجاجه، وينبّه الطالب للنقائص عنده، ويميز الأهداف والكفايات المكتسبة من غير المكتسبة.

4-2-3-غياب التخصّص:

من الأمور التي تحتاج إلى معالجة في النظام التعليمي الحوزوي أنه مهما كان الأفق العملي الذي يتحرّك لأجله الطالب والغاية التي جاء لأجلها إلى الحوزة، التبليغ، أو التفقه، أو الاجتهاد....فإنّ ثمّة مسلكًا دراسيًا واحدًا يسلكه الجميع مهما كانت أهدافهم وميولهم وقابليّاتهم، هو مسلك واحد لا يحيد عنه جميع الطلاب، وهو لا يتبدّل ولا يتيغر.

ففي الحوزة التقليدية والنظام الكلاسيكي لا يوجد اختصاص، لا على مستوى العلوم نفسها: كالاختصاص في القرآن، او الحديث أو الكلام أو الفقه، أو الفلسفة... ولا اختصاص على المستوى العمليّ والوظيفي، بمعنى أن تكون هناك اختصاصات في المهمة والوظيفة التي سيتصدّى لها الطالب بعد تخرّجه: كالتحقيق، والتأليف، والكتابة، والتبليغ الديني، والإعلام الديني، والقضاء... "ففتح باب التخصّص الدقيق في أبواب مثل القضاء، والأديان والمذاهب، والتبليغ بقسميه الداخلي والخارجيّ الذي يتطلّب من جملة ما يتطلّب دراسة المبلِّغ المختار للغة وطباع وعادات وتقاليد وقيم

(1) مطهري: محاضرات في الدين والاجتماع، م.س، ص 549.

وثقافة ومجتمع وسياسة ذلك البلد، مما تقتضيه طبيعة عمل المبلّغ حتى ينجح في مهمته بعد أن يندمج بمجتمعه الجديد اندماجًا كاملًا. وهو ما نفتقده كثيرًا في العديد من المبلّغين القادمين إلى دول ربما لا يعرفون لغتها اليومية المتداولة، فضلًا عن ثقافتة مجتمعها، فيعثر مسعاهم أو يفشلون في مهمتهم"[1].

وربما ذلك يفسر لنا توجّهات الشيخ كما حلّلناها سابقًا في تأسيس لجنة لإصلاح المنبر الحسيني والتخطيط لكلّية الوعظ وكلّية التاريخ.....

3-2-5- غياب تدريس مواد أساسية لبناء الطالب والتمركز حول الفقه والأصول:

من معوقات المنهج التقليديّ، وكما يتّضح بالاطلاع على المتون العلميّة التي يدرسها الطالب طوال مشواره الدراسي: من المقدمات إلى البحث الخارج مرورًا بالسطوح، التمركز حول الفقه والأصول، وإهمال حتى بعض المواد الأساسية التي تساعده في تفعيل معارفة الأصولية وتعميق ذوقه الفقهي وفهم النصوص واستنباط الأحكام، بل غابت المواد التي تساعد الطالب في معرفة المصادر الأساسية، والنصوص الأصلية التي يتعامل معها الفقيه كعلوم القرآن بمعناها الواسع، وعلوم الحديث!

لقد تضخّم علم الأصول، نتيجة غياب الاختصاص والتمركز حول الفقه والأصول بحجّة (الاجتهاد)، وخرج عن السيطرة! بل غدا يحول دون البناء المتكامل للطالب، لقد عبّر السيد عبد الأعلى السبزواري رَحِمَهُ اللَّهُ، أحد كبار المراجع المعاصرين (ت1413هـ) عن هذه الحقيقة المرّة: "بأنّ مثل علم الأصول هذا اليوم مثل كلب الزرع والبستان، فكما كلب الزرع والبستان يمنع السارق والمعتدي من الاقتراب من البستان والزرع، فكذلك أصول الفقه المنتفخ في يومنا هذا، يمنع من الدخول إلى جنّة القرآن وبستان

(1) الحكيم: النجف الأشرف وحوزتها، م.س،، ج2، ص 365.

أحاديث أهل البيت عليهم السلام، حيث ترى العالم في النجف يدرس سنين طويلة المسائل الأصولية ويناقشها على أساس الأبحاث العقلية والفلسفية والعلمية البحثية، وليس له إلمام واسع مع الأسف بآيات الأحكام القرآنية والتفسير والأحاديث الشريفة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام، كما أنّه لم يتذوّق مرادهم ولم يعش أجواءهم النقيّة، ولم يفهم مشربهم، ولم يعرف شيئًا كثيرًا عن رؤيتهم الفقهية والعقائدية والتفسيرية"[1]؛ ولذلك كان السيد السبزواري ينهي الدورة الأصولية في البحث الخارج خلال سنة أو سنتين فقط، من دون أن يقف طويلًا عند المسائل التي لا أثر لها في الفقه حسب رأيه.

وقد سار في هذا المسلك نفسه السيد محسن الأمين العاملي، علاّمة بلاد الشام ومصلحها الكبير (1865-1952م)، وهو من العلماء الذين تطابقت مسيرته الإصلاحيّة في الكثير من أبعادها مع المشروع الإصلاحي لمنتدى النشر، (إنشاء مدارس حديثة على أساس ديني، إصلاح المنبر الحسيني...)[2]، فكتب كتاب حذف الفضول من علم الأصول، واعتبر أن ما يحتاجه الفقيه فعلًا في الاستنباط من علم الأصول لا يتجاوز المئة صفحة![3]

وتأليف الشيخ المظفر كتابه المميز في علم الأصول بأسلوبه وتبويبه المدرسي يؤكّد أنّه كان يدرك المشاق التي يكابدها الطلبة في درس الأصول نتيجة الفراغات الواسعة التي تفصل بين متون السطوح الأولى والسطوح العليا، واللغة المعقّدة التي كُتبت بها هذه المتون، وقد تحدّثنا عن ذلك في معرض بحثنا عن الإنتاج العلميّ للشيخ المظفر في المبحث الأول.

(1) الغروي، محمد: مع علماء النجف، لا ط، بيروت، دار الثقلين، لا ت، ص 15.

(2) من المفارقات في مسيرة الشيخ المظفر موقفه السلبي من إعلان السيد محسن الأمين تحريمًا لكثير من الشعائر الحسينية، إثر الانقسام الكبير الذي حصل في النجف بين مؤيد للسيد محسن الأمين وبين معارض ومزندق ومكفّر، وكان موقف الشيخ ممن دعا للتمسك بهذه الشعائر.

(3) انظر: الأمين العاملي، محسن: حذف الفضول من علم الأصول، لا ط، قم، مركز البحوث التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، 1423هـ.

6-2-3 -الانغلاق على الذات وعدم تبادل الخبرات مع المؤسسات التعليمية الدينية في العالم الإسلامي، باستثناء بعض المبادرات الفرديّة للانفتاح على الآخر المذهبيّ، وتبادل الخبرات مع المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقرويين... وكان الشيخ محمد جواد مغنية من المتحمسين لهذه الإطروحة والداعين لعقد المؤتمرات المشتركة وتبادل البعثات العلمية...[1]

وكان للشيخ المظفر شرف المساهمة في تعزيز التواصل مع المحيط الإسلامي والمؤسسات العلمية في البلاد الأخرى، فقد شارك بمحاضرة في مهرجان كراجتشي الذي أقيم في باكستان بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على ميلاد الإمام علي عليه السلام سنة 1376هـ والمؤتمر الثاني الذي شارك فيه، مهرجان جامعة القرويين بمدينة فاس المغربية عام 1379هـ - 1960م.

وفي هذا المؤتمر قدّم الشيخ محاضرة قارن فيها بين المنهج المتبع بين جامعة النجف وجامعة القرويين، وأكد أن الجامعتين صنوان في التاريخ، والمنشأ، ووضع المنهج، ويضربان بجذور تاريخيّة مشتركة، وتعود منابع الجامعتين وكلّ الجامعات الإسلامية الأخرى: القيروان و الزيتونة، والأزهر، قرطبة، وبغداد...كلّها تعود إلى جامعة المدينة بعد الهجرة، وجامعة الكوفة عاصمة أمير المؤمنين عليه السلام، وجامعة البصرة، واغتنم الشيخ مشاركته في هذا المؤتمر ليؤسّس لتبادل الخبرات المعرفية والعلمية بين الجامعتين فقدّم نماذج كتب تدرس في حوزة النجف ليطلع عيها أساتذة وعلماء القرويين، وحمل معه إلى النجف بعض الكتب التي تدرّس في جامعة القرويين.[2]

3-3 -تجليات النجاح والخلود:

إنّ مقياس نجاح أيّ تجربة إصلاحية، هو حجم التأثيرات التي أحدثتها

(1) البهادلي: الحوزة العلمية في النجف معالمها وحركتها الإصلاحية، م.س، ص 298.
(2) الطريحي: موسوعة الشيخ المظفر، م.س، ج1، ص 169

في واقع الأمة، ومدى الاقتراب من تحقيق أهدافها التي وضعتها، ومقدار المسافة التي قطعتها على طريق التكامل والتسامي في ميادينها ومجالاتها.

ويمكننا الادعاء جازمين أنّ تجربة الشيخ المظفر نجحت نجاحًا منقطع النظير، بل إنّ النجاحات التي حقّقتها فاقت نجاحات: التجارب المعاصرة لها مدرسة الشيخ كاشف الغطاء، مدرسة السيد محسن الحكيم، مدرسة السيد عزالدين الجزائري.... وهي تجارب تحركت في المنحى الإصلاحي نفسه للتعليم الحوزوي.

كما أنّ كلّ التجارب التي جاءت بعدها تقريبًا استلهمت منها فلسفتها الإصلاحيّة ورؤيتها التجديديّة دون أن تتجاوز أفقها بعيدًا!

ولعلّ الوقائع الآتية تشكّل بعض آيات هذا النجاح، وبعض شواهد هذا الخلود والاستمرار، ورسوخ هذا المشروع في وجدان الأمة وضميرها، وفي عقلها وتفكيرها.

3-3-1- تكوين شخصيات وأعلام ممّيزين:

هناك نخبة من أعلام الفكر المعاصر والمنبر الأصيل من خرّيجي كلّية الفقه، أو ممن درسوا دروسًا حوزوية على يد الشيخ: منهم السيدان حسين وموسى بحر العلوم، والسيد مصطفى جمال الدين، والسيد محمد جمال الهاشمي، والشيخ عبد الهادي الفضلي، والسيد هادي الفياض، والشيخ يونس المظفر، والشيخ عبد الحسين المظفر، والسيد عبد الحسين الحجار، والأستاذ محمد صادق القاموسي، السيد محمد تقي الحكيم، الشهيد السيد محمد الصدر(الصدر الثاني)، الشيخ أحمد الوائلي، الشيخ محمد مهدي الآصفي، الميرزا رضا عرفانيان، الشيخ محمد حسن الاصطهباناتي، والسيد عدنان البكاء....

3-3-2- إحداث نهضة ثقافية وفكرية:

لقد أفرزت التجربة حراكًا فكريًا وثقافيًا في مواجهة التيارات الفكرية المنحرفة من تغريب، وتبشير، وعلمنة، وشيوعية، فالإصلاح التعليمي الذي أنجزه الشيخ من جهة، وحضوره في جمعيات التوعية والتثقيف كجماعة العلماء ومنتدى النشر، ساهم في إحداث هذه النهضة الفكرية، ودرء المخاطر الثقافية والحضارية التي كانت تحدق بالأجيال الآتية في العراق والأمة الإسلامية عمومًا من زحف أنظمة التعليم الحديث، وتمدّد الطروحات الفكرية المنحرفة.

3-3-3- إنتاج متون علمية:

أنتجت التجربة متونًا علمية دراسية غنية، والكثير منها لا يزال معتمدًا إلى يومنا الحاضر في الحوزات، ككتب الشيخ المظفر: (المنطق، وأصول الفقه، ومحاضرات الفلسفة الإسلامية، عقائد الإمامية)، والملخّصات التي كتبها عبد الهادي الفضلي لمدارس منتدى النشر (خلاصة المنطق تلخيص لمنطق المظفر، ومبادئ أصول الفقه تمهيد لأصول الفقه للمظفر)، الأصول العامّة للفقه المقارن للسيد محمد تقي الحكيم، محاضرات علوم القرآن للسيد محمد باقر الصدر (ألقاها السيد محمد باقر الحكيم)، محاضرات السيد حسين الحمامي في الفقه...

3-3-4: الإشعاع خارج النجف وخارج العراق:

ففي لبنان تأسّست بعض المدارس التعليمية التي تجمع بين النمط الحديث والتعليم الديني على منهج منتدى النشر بإشراف السيد عبد الحسين شرف الدين (الجعفريّة). وفي زيارة للشيخ المظفر لقم ومقابلته مع آية الله البروجردي عرض الشيخ على السيد البروجردي تجربة كلّية الفقه، فتحمس السيّد لها، ولكن وفاته المفاجئة عطّلت المشروع في حوزة قم.

5-3-3: استمرارية المشروع الإصلاحي:

ولعل الشاهد الأبرز لنجاح هذه التجربة استمراريتها وديمومتها، فهي تركت وراءها رعيلًا من المصلحين الغيارى الذي استلهموا من روح المؤسس نزعة الإصلاح والتجديد، واستمروا في تكريس هذا المسار: فكانت نخبة من الأعلام الذين أفنوا أعمارهم في تطوير الدرس الحوزوي، والنهوض بالمناهج والكتاب التعليميّ، وسنكتفي بنموذجين على هذا الصعيد:

1- الدكتور عبد الهادي الفضلي (1935 - 2013 م)، وهو خرّيج كلّية الفقه وأستاذ فيها، أفنى عمره في هذا المسار، فخلّف رحمه الله مكتبة غنية بالمقررات الدراسية في مختلف العلوم، وكان له دور بارز في تأسيس مؤسّسات أكاديمية تدرّس العلوم الحوزوية (الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية بلندن). فقد صنّف مقرّرات دراسية في مختلف العلوم: في اللغة والنحو والصرف والبلاغة، في الكلام والحكمة والفقه الاستدلالي وأصول الفقه، وتاريخ التشريع، والرجال، والحديث [1]

2- الشيخ محمد باقر الإيرواني (1949م-.....): ويعدّ من الجيل الثاني بعد الشيخ، درس في طفولته الدراسة الأكاديمية والثانوية والإعدادية في مدارس منتدى النشر، وشرع منذ المرحلة الإعدادية في الدراسة الحوزوية، حضر بحوث الخارج عند كبار المجتهدين المعاصرين في النجف كالسيد الخوئي والشهيد محمد باقر الصدر، والسيد محمد سعيد الحكيم، والسيد علي السيستاني. اضطرته الأوضاع السياسية في العراق إلى الهجرة إلى قم، وهناك تصدى لتدريس السطوح العليا، فدروس البحث الخارج، ثمّ عاد إلى النجف، وهو اليوم من أساتذة البحث الخارج فيها، امتازت تجربته بالمساهمة الفاعلة في إعداد

(1) للاطلاع على بيبلوغرافيا الشيخ الفضلي رحمه الله راجع: نصور، حسين: الشيخ عبد الهادي الفضلي وتجديد مناهج التعليم الديني، ط1، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2009، ص 226-252.

مقررات أغنت المكتبة الحوزوية، واعتمدت لدى العديد من المدارس والمؤسسات كبديل للمتون القديمة، وبعضها الآخر سدّ فراغًا في مواد أساسية مهمة يهملها النظام الحوزوي التقليدي، وتشكّل مدخلًا ضروريًّا للاستنباط الفقهي، ومن ذلك: دروس تمهيدية في الفقه الاستدلالي (بديل عن اللمعة)، الحلقة الثالثة في أسلوبها الثاني (شرح للحلقة الثالثة في علم الأصول)، درروس تمهيدية في القواعد الرجالية، في القواعد الفقهية، في آيات الأحكام....

خاتمة: تجربة الشيخ الأفق الأسمى!

وهكذا يتجلى لنا أنّ هذه التجربة الرائدة، رغم النقائص التي شابتها، لاتـزال تلهم المصلحين والمفكرين عبر الأجيال، من المثير حقًّا أنّ التجارب الإصلاحية المعاصرة، الفردية منها والمؤسساتية، لم تتجاوز الأفق الاستراتيجي لمشروع الشيخ، رغم كل ما يتوافر لها اليوم من إمكانيات هائلة، وظروف سياسية مناسبة، وبيئة بشرية غنية، وطفرة تقنية وفنية في وسائل البحث والتأليف والتواصل والنشر...

إنّ هذا الخلود لهذه التجربة، واستمراريّة عطائها لحد الآن تمثّل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.[1]

وهذا يحفّز الجميع نحو السير قدمًا نحو التجديد على بصيرة ووعي نافذين.

إنّ السر العميق لهذه التجربة الفريدة يكمن في معنويتها الرفيعة بما توافر فيها من إخلاص، وتواضع، وتفانٍ، ونكران للذات، وانصهار في خدمة الطالب من جهة، وكذلك في نجاحها في الاعتصام بجوهر التعليم

(1) سورة إبراهيم، الآية: 24.

الحوزوي لا بقشوره وشكلياته والمزاوجة بين هذا الجوهر في هذا التعليم ومقوّماته التي تحدثنا عنها آنفًا، وإنتاجية التعليم الأكاديمي وضوابطه وحسن تنظيمه وتخطيطه من جهة أخرى.

إنّ الكثير من الإرباك والتعّثر الذي تسجله التجارب المعاصرة يكمن في الإخفاق على هذا الصعيد، حيث لم توفق في هذه المزاوجة، وفي حالات كثيرة للأسف كانت خسارة هذه التجارب مركبة أو مزدوجة، فلا روح الحوزة صانت، ولا إيجابيات النظام الأكاديمي حازت! فعاشت الاغتراب مرّتين، مرّة بفقدان هويتها الحوزوية العميقة، ومرة أخرى بتقليدها الآخر.